



## تفسير (الكشاف) لجار الله الزمخشري "ت: 538هـ" قراءة نقدية

م.م. مريم جمعة راضي<sup>1</sup>\*

رئاسة الجامعة المستنصرية/ الامانة العامة للمكتبة المركزية/ بغداد/ العراق

### الملخص

سلطت هذه الدراسة المتواضعة الضوء على واحدة من أبرز المصنفات التفسيرية التي سلكت المسلك البياني للكشف عما تضمنه الترتيل العزيز من مقاصد التعبير وروعة البيان وحسن الصنعة الأدبية التي عجز عن مجاراتها أرباب الفصاحة والبيان ممن بلغت الرقي تعبيراتهم. وقد اتخذت الباحثة الجانب النقدي لدراسة هذا التفسير القيم مع بيان ما له وما عليه من مؤاخذات مسجلة، وبعض هذه المؤاخذات مختصة بعقيدة المفسر الاعتزالية وانحيازه لها، وبعضها تختص بقبلياته المعرفية والثقافة المكتسبة التي عاشها، وبعضها يعود إلى أصول لغوية لم يهتد أربابها إلى التفريق بينها.

الكلمات المفتاحية: (الزمخشري، الكشاف، نقد)

## tafsir (alkashafi) lijar allah alzumakhshirii "t: 538h" qira'at naqdia

Assistant teacher Maryam Juma Radi

General Secretariat of the Central Library/ Presidency of Al-Mustansiriya University/ Baghdad/ Iraq

### Abstract

In this modest research, the researcher shed light on one of the most prominent interpretive works that took the rhetorical approach to reveal what the precious recitation included in terms of the purposes of expression, the magnificence of expression, and the beauty of literary craftsmanship that the masters of eloquence and rhetoric, whose expressions reached the level of sophistication, were unable to match. The researcher adopted the critical and evaluative aspect to study this valuable interpretation, stating what it has and what it has of recorded objections to, and some of these objections are specific to the interpreter's Mu'tazilite doctrine and his bias towards it, and some of them are specific to his cognitive preconceptions and the acquired culture that he lived, and some of them go back to linguistic origins that their masters did not find a way to reconcile between them.

<sup>1</sup> .maryamjumaa@uomnstarsiriyah.edu.iq

## المقدمة

الحمد لله وكفى، حمدا طيبا مباركا كما هو أهله، والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى أهل بيته الطاهرين.

أما بعد:

فإن قيمة كلّ كتاب مكتسبة من قيمة مؤلفه، فإن كان هذا المؤلف صاحب علمٍ ودراية فقد استحق الصدارة وكان أهلاً لأن تؤخذ منه العبارة بغض النظر عن ميوله وانتمائه العقدي والمذهبي، فالنظر يكون إلى ما قال لا إلى من قال، فالموضوعية والتجرد والحياد سمة أساسية ينبغي توفرها عند كل باحث، فنظرة الباحث الحاذق لا بد أن تكون سالمة من المسبقات والمؤثرات الخارجية عن الموضوع.

ومن بين أولئك الافذاذ الذين سجّل لهم التراث اليد الطولى في خدمة الترتيل العزيز واسكناه لطائفه هو جار الله الزمخشري "ت: 538هـ" ذا القلم السيل والفكر الناضب الذي كانت غايته الاسمى في تفسيره (الكشاف) تنحصر في الكشف عن إعجاز النص الكريم ومعرفة ما استتر من كنوزه التي لا تنقضي مهما مضت العصور وانقضت الدهور، ولا يختلف اثنان في علم الزمخشري ورجاحة عقله فهو المفسر المقل صاحب السفر الوفير الذي يصبو الى سبر أغوار أي الذكر الحكيم والوقوف عند مدلولاته وعجائبه التي لا تنقضي.

لذا فما كان لي إلا تسليط الضوء على هذا التفسير القيم أسجّل بعضاً مما ظفرت به محاسن ومؤاخذات، كاشفة في المقام نفسه عن قيمته العلمية وأقوال العلماء فيه، ولهذا فقد كانت خطة بحثي مقسّمة على تمهيد ومباحث ثلاثة وخاتمة بما آلت اليه نتائج البحث.

فأما التمهيد: فقد اختص للتعريف بجار الله الزمخشري صاحب تفسير الكشاف، وأما المبحث الاول: فكان للتعريف بتفسير الكشاف ومنهج المفسر فيه، وأما المبحث الثاني: فقد قصدت فيه بيان القيمة العلمية لتفسير الكشاف، وأما المبحث الثالث: فقد اختص بالقراءة النقدية لهذا التفسير معنيّة فيه بإبراز ما سجلت عليه من مؤاخذات قد تشوبه.

وكان هدفي من هذه الدراسة هو كشف اللثام وإزالة الابهام عن أحد جهايزة التفسير والبيان وهو الزمخشري المعتزلي الذي انصبت عنايته على النص القرآني واستنطاق دلالاته البيانية استنطاقاً عجيباً وأدوات متفردة قد لا يهتدي إليها كل مفسر، ولذا استطيع القول إن ما توفر عند صاحب هذا التفسير من ادوات كاشفة عن قصدية أي الذكر الكريم قد لا تتوافر عند بعض المفسرين، فهو المفسر واللغوي والمتكلم في آنٍ واحد.

وقد تعددت مصادر البحث فكان منها كتب التفسير وعلوم القرآن وكتب اللغة والبلاغة والنحو والاشتقاق وغيرها.

وختاماً: فلا أدعي الكمال والتمام لدراستي هذه فالكمال لله وحده، ولكن هذا ما سطره قلبي، وجاد به فكري ولا يكلف الله نفساً الا وسعها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

التعريف بجار الله الزمخشري

أولاً: اسمه ونسبه ومولده ونشأته:

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري الذي ينسب إلى مدينة زمخشر، المولود فيها عام "467هـ"، ويلقب بجار الله لمجاورته مكة، فكان هذا اللقب ملازماً له، ويُعدُّ من أكابر خوارزم ومفاخرها لغزارة علمه ونفاذ بصيرته(1).

ويعدُّ جار الله من المعاصرين لتأسيس الدولة الخوارزمية، فنشأ في بيئتها العلمية التي وُصف سكانها بأنهم أهل دراية وفقه ولغة وأدب، وكان معتقدتهم الاعتزال يمثل الحالة السائدة عندهم إذ كان من النادر وجود خوارزمي ليس بمعتزلي، ومن بينهم جار الله الذي كان من أساطين المعتزلة وجهابذتهم، رائداً في مذهبه، متسلحاً به، ذا علم غزير، وكان عظيم الفضل، غاية في الذكاء والاجتهاد(2).

درس في مدينة زمخشر التي تعدُّ مسقط رأسه، منتقلاً بعدها إلى بخارى لأجل طلب العلم في بداية حياته، ثم إلى بغداد أكثر مرة، وأخذ العلم عن مشايخ كثر حتى اشتهر في أكثر من علم، ويرع في أكثر من فن، فقد كان أديبا متكلماً سامعاً الحديث متفهماً إذ صار إمام عصره آنذاك، يشهد على ذلك ما أثار عنه من مصنفات شتى في التفسير والبيان والنحو والغريب والفقه والعروض إضافة إلى ديوانه الشعري(3).

ومن بين علماء بلدة خوارزم الذين انتهل العلم عنهم، أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني المتوفى سنة (507 هـ) الذي كان يُنعت بفريد عصره ورائده في علوم اللغة والاشتقاق والبيان، وكان مثلاً يُحتذى به في الفضائل(4).

ثانياً: شيوخه:

ليس بوسع الباحثة سرد جميع من انتهل الزمخشري العلم منهم وإنما تكتفي بأبرزهم:

1- ابن البطر نصر بن أحمد بن عبد الله البغدادي البزاز، الذي يُعرف بالمقرئ أبي الخطاب، المولود سنة 398هـ، كان حَسين الرواية، صحيح السماع، توارد عليه أهل العلم من كل البقاع(5).

2- الحسن بن المظفر أبو علي النيسابوري، أديب، شاعر، مصنف، يُعدُّ واحداً من أدباء بلدة خوارزم آنذاك، وله مصنفات متعددة منها: (تهذيب ديوان الادب) و (تهذيب اصلاح المنطق)(6).

3- الاصفهاني، محمود بن جرير الذي يلقب ب(فريد العصر) لغزارة علمه وتبحره في علوم شتى كاللغة والنحو والطب والاجتماع، فقد أقام بخوارزم فترة فانتفع الناس من علمه ونُبِّل اخلاقه فتخرج على يديه أكابر من عشاق اللغة والادب(7).

ثالثاً: تلامذته:

تلقى عن الزمخشري وانتهل من علمه كثيرون ممن تتناقل فكرهم القاصي والداني، لعل من أشهرهم: الخوارزمي أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن هرون العمراني المتوفى سنة (560 هـ) الذي يلقب بالحجة الفاضل وفخر الادباء والمشايخ، قرأ على جار الله فصار في طليعة أكابر أصحابه وأوفرهم علماً، فقد ترك إرثاً في التفسير وعلوم العربية وحقول معرفية متعددة(8).

ومن اولائك أبو الفضل محمد بن أبي القاسم بن بايجوك الخوارزمي الأدمي النحوي المتوفى سنة (562 هـ) الذي يلقب بـ (زين المشايخ)، كان إماماً في فنون العربية والادب وحجة في كلام العرب، أخذ قواعد اللغة والبيان عن الزمخشري وحلّ من بعده في محلّه، وصنّف في التفسير والبيان والنحو والمعاني والمعجم ونحو ذلك(9).

ومن بين الذين أجاز لهم الزمخشريّ هو الوطواط محمد بن محمد بن عبد الجليل بن عبد الملك ابن محمد بن عبد الله رشيد الدين، المولود ببليخ، والمتوفى ببلدة خوارزم سنة (573هـ)(10)، وزينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الجرجاني - المعروفة بابنة الشعري - بلغت من العلم منزلة رفيعة، فهي الأدبية الجليلة والمحدثة الفاضلة، المولودة ببلدة نيسابور عام (524 هـ) المتوفاة بها عام (615 هـ)(11).

رابعاً: مذهبه الفقهي وامتأؤه العقدي:

جار الله الزمخشري من الناحية الفقهية كان حنفي المذهب، معتدلاً فيه غير يتعصب له، وأما من حيث الاعتقاد فكان معتزلياً متظاهراً بذلك، و(المعتزلة) تعدّ واحدة من الفرق الإسلامية التي نشأت في نهاية العصر الأموي، وتنسب في نشأتها إلى أبي حذيفة واصل بن عطاء، أحد تلامذة الحسن البصري، الذي وسّع هو وصاحبه عمرو بن عبيد، مجال القدرية، وحولها إلى حالة جديدة، فأسّسوا فرقة المعتزلة المعروفة، وتتلخص أصول هذه الفرقة بما يأتي:

أ- القول بالتوحيد: ويُعدّ جوهر فرقته، وهرم معتقدتهم، فأبانوه بياناً خاصاً من جهة الصفات الثبوتية والسلبية في ذاته، وأنّه لا تدركه الابصار سواء في الدنيا أو في الآخرة، وأنّ كتابه سبحانه مخلوق.

ب- القول بالعدل: والمراد بهذا: أنه جلّ في علاه عادل، لا يظلم أحد قط، ولذا أعطاهم حرية الاختيار والارادة، فلم يقيدهم بقضاء أو قدر سابق، وإنما صيّرهم أحراراً، لهم حرية اختيار ما يشاؤون، ليكونوا بهذا الحال محلاًّ للثواب والعقاب، وإلّا كيف يتأتّى منه تعالى العادل عقوبة شخص على ارتكاب ذنبٍ قد فرضه عليه فيما سبق، وتم تقييده به في كتاب ؟ ! .

ت- الوعد والوعيد: ومراده : أنّ الله سبحانه صادق الوعد والوعيد، إذ لا مبدل لكلماته، فهو المجازي لمن أحسن إليه بالإحسان، ومن أساء إليه بالسوء، لا يغفر للذي ارتكب كبيرة من غير توبة، ولا يقبل لأهل الكبيرة من شفاعته، وهم خالدون في جهنم .

ث- المنزلة بين المنزلتين: ومعناها أن يعتقد المرء أنّ مرتكب الكبيرة لا هو بكافر ولا مؤمن، فتكون منزلته متوسطة بين الايمان والكفر .

ج- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ومعناه عند المعتزلة نشر الدعوة الاسلامية وهداية الضالين واجبة على كل فرد مسلم (12) .

إذن: الزمخشري معتزلي المعتقد وإنه لينتصر لمذهبه الاعتزالي متسلحاً في ذلك بسلاح العقل، وفي مواضع متعددة من تفسيره الكشاف نجده حريصاً غاية الحرص على أن يأخذ من الآي المباركة ما يشهد لمذهبه وينتصر، وعلى أن يؤول ما كان منها لا يتوافق مع ثوابته العقدية.

خامساً: وفاته:

توفي جار الله الزمخشري بجرجانية إحدى مدن خوارزم وذلك في ليلة عرفة بعد رجوعه من مكة المكرمة عام (538هـ) (13)، بعد حياة علمية حافلة بالعلم والعطاء، فقد وصفوه بفقير عصره على مستويات متعددة اللغوية منها والنحوية وعلوم القرآن والأدب، يشهد له من تمنع مؤلفاته بطول الباع، والمحتوى الغزير، والاسلوب المتين، ورسالة المنطق والتفكير القويين.

فهاجت بوفاته الاحزان لدى محبيه، وراثه بعضهم بقوله:

فأرض مكة تدرى الدمع مقلتها ..... حزناً لفرقة جار الله محمود (14)

المبحث الاول

التعريف بالكشاف ومنهج المفسر فيه

أولاً: اسم الكتاب وسبب تأليفه:

ألف الزمخشري تفسيره الذي أسماه بـ(الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل) وهو كشاف حقيقة كشف النقاب عن وجوه اعجاز النظم الكريم من جوانبه البلاغية والاسلوبية ودقة معانيه في مفرداته ويعد من أشهر كتبه وهذه هي التسمية التي ذكرها في مقدمة كتابه، حيث يقول: (حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملئ عليهم الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل)(15).

وقد أغنانا الزمخشري نفسه مسألة التتقيب والبحث عن السبب الذي استدعى تأليف كشافه فذكر سبب ذلك بقوله: (ولقد رأيت اخواننا في الدين من أفاضل الفئة العادلة الجامعين بين علم العربية والاصول الدينية كلاً رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملئ عليهم الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل)(16).

إن تفسير جار الله الموسوم بـ(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) من التفاسير التي أخذت حيزاً كبيراً ومكانة رفيعة، عند أربابها المختصين، ولا عجب أن ينال الكشاف هذه الرفعة العلمية فمؤلفه عالم نحري وجهب خبير بأساليب الكلم وفنون التعبير من النحو والاشتقاق والبيان والمعاني والبدع والاصول وسبب النزول وناسخ الأي من منسوخه... الخ، فقد كان موهوباً بارعاً أظهر لنا كثيراً من جمال الذكر العزيز ونواحيه البلاغية فيه، وقد زاد رقيّه العالي من شأن مصنفه بحيث جعله محل ثناء كل من جاءوا من بعده ، فقد قال فيه ابن خلدون المتوفى سنة (808هـ) ما نصه: (ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الأعتزال في العقائد)(17)، ورأى يحيى بن حمزة العلوي المتوفى سنة (749 هـ) أنه متميز على سائر التفاسير من جهة تأسيسه على فن المعاني والبيان، فقال عن سبب تأليف كتابه (الطراز): (الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من إخوانه قرئوا تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري، الممتاز بأنه مؤسس على قواعد علم المعاني والبيان،... ومن أجل هذا الوجه كان متميزاً عن سائر التفاسير، لأنني لم أجد تفسيراً مؤسساً على المعاني والبيان سواه)(18).

وهذا ما أبانه الطاهر بن عاشور(19) فقد رأى أن تفسير الزمخشري قد فتح نافذة كانت مغلقة على بيان الوجه البياني المعجز في تراكيب الأبي الكريم فقال: (فانفتح في هذا الوضع الجليل باب كان مغلقاً في أوجه متعاطي التفسير، وهو بيان الوجه البلاغي المعجز من كل تركيب قرآني وجعل ذلك الوجه ملاك المعنى المستفاد من التركيب)(20).

وللقيمة العلمية العالية التي حواها كشاف الزمخشري فقد اهتم به غير واحد من العلماء ما بين من اختصره وجعل له حاشية ومن حاول أن يوازن بينه وبين غيره، ومن أولئك النسفي المتوفى عام (710 هـ) في تفسيره (مدارك التنزيل)، والقاضي البيضاوي المتوفى عام (791 هـ) في تفسيره (أنوار التنزيل) الذي هو في حقيقته اختصار من تفسير الكشاف وتفسير الرازي وجمع بينهما، ومنهم أبو السعود العمادي المتوفى عام (982 هـ) في (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) الذي أراد الجمع بين كشاف الزمخشري وتفسير البيضاوي(21).

ومن الحواشي التي كُتبت عنه ما دونه أبو العباس أحمد بن المنير المتوفى عام (683 هـ) صاحب كتاب ( الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال )، ومنهم شرف الدين الطيبي المتوفى عام ( 743 هـ) في كتابه ( فتح الغيب في الكشف عن قناع الريب ) ، ومنهم السيد الشريف الجرجاني المتوفى عام (816 هـ) وإن كانت الحاشية التي صنعها تنتهي في سورة البقرة في الربع الأول منها، لكن مع ذلك فهي مطبوعة مع تفسير الزمخشري في الطبعة التي بين أيدينا اليوم(22).

والحق أن كشاف الزمخشري قد صار مرجعا يستقي منه المفسرون فيما يتعلق بنظم أي الذكر وبيانه ، وقد أقر بذلك جمع كثير من العلماء حتى من مخالفي جار الله إذ اعترفوا بقوة سبكه وحسن بناءه ولذا فقد حقَّ لجار الله أن يفخر بكشافه هذا قائلاً :

إنَّ التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي(23)

ثانياً: منهجه في التفسير:

سلك جار الله الزمخشري في كشافه وهو يستنطق النص القرآني الكريم منهجا قائماً على أصول متعددة لعل من أهمها الوجهة الكلامية والبيانية والنحوية والصرفية للآيات، والتعليل العلمي والتحليل الأدبي.

والذي يبدو أن الوجهة العلمية عند الزمخشري في مسألة الجدل وطرح الاسئلة والجواب عنها والعناية بتوجيه تلكم الأدلة كانت حاضرة، وقد كان سمة عامة عند البلاغيين إذ (كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى طرح الفكرة وإثبات صحتها أو دفع فكرة الخصم ، فالجور في البلاغة جور كلامي (...)(24) علاوة على من قسم البلاغة من الباحثين على مدرستين أدبية وكلامية، ولم يكن جار الله مبتدعا بهذه الحال، فد أبدع في كلا الجانبين جنبه التعليل العلمية وجنبه التحليل الأدبية.

فالمنهج العلمي عند جار الله يتمثل في استعانته بالسماع في جميع ما روي، فقد كان سماعاً عن العرب، مستعيناً في منهجه التفسيري بما أثر عنهم فقد كان يطوف بمختلف البقاع العربية والصحاري ملتقطاً

المفردات والتعبيرات وهو بهذا الحال يكون قد سلك مسلك الاقدمين ممن جمعوا العربية بواسطة السماع الذي يعدُّ الركن الاساس عند فقهاء اللغة وأئمة النحو العربي، إذ هو من أسس وركائز المنهج الوصفي في ميدان علم اللغة الحديث الذي يُعنى بالمنطوق من اللغة أكثر من المكتوب منها، مع أنّ وقت الاستشهاد والاحتجاج في عرف النحاة واللغويين كان قد ولى عملياً قبل مجيء الزمخشري، إذ لم يعد احد يحتج إليه لأنّ القواعد والاسس كانت قد أصلت وقعدت(25).

وكذلك أيضاً فقد كان جار الله يسير في تعامله مع الدلالة القرآنية نحو الدلالة الإجمالية العامة للنص لا الدلالة التفصيلية، والذي يوازن -مثلاً- بين كشاف الزمخشري وتفسير الطبري يجد أنّ الأول أوجز بحيث جاء في سبعة أجزاء قبالة ثلاثين جزءاً للمصنف الثاني، مع أنّ الكشاف لم يكن خارجاً عن دائرة النصّ الضيق إذ لم يبالغ في سرد القصص ولم يُكثر منها أو يستطرد في الامثال والشواهد التي قد تبتعد عن المقصود، فقد كانت سمتة تجنب الاستقصاء والاطناب.

وتجنب الاستقصاء في عُرف المفسرين تجنّب البحث عن دلالة لم يحوها النصّ وهذه واحدة من أهمّ القواعد التفسيرية التي ساقها السيوطي عند سرد شروط التفسير فقد قال ما نصّه: (قال العلماء: يجب على المفسّر أن يتحرّى في التفسير مطابقة المفسّر، وأن يتحرّز في ذلك من نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادة لا تليق بالغرض)(26).

وقد نهج الزمخشري اسلوب السؤال والجواب، فعند البدء في التفسير فإنه يبتدئ بذكر اسم السورة وعدد آياتها ثم يذكر هل السورة مكية أم مدنية ثم يبين أحياناً سبب النزول ثم يوضحه ويبين معناه ويكشف المعاني الخفية في الآية مستعيناً بالنحو واللغة والبلاغة، ويبنى مناقشته على طريقة السؤال والجواب عنه بقوله: (فإن قلت) ويجب عنه بقوله: (قلت: كذا وكذا) وكان اسلوبه في الطرح يميل الى الاختصار وعدم الاسهاب، واختصاره هذا لم يكن مخللاً وإنما فيه كثير من الفوائد(27).

والحق أن مصنف الكشاف صار مرجعاً للمفسرين فيما يتعلق بنظم النص الكريم وأسلوب لغته، وقد أترف كثير من أهل العلم حتى من المخالفين لمذهب مؤلفه ببراعته وجودته وحسن صنعته وتأليفه ولذا كان من حق جار الله أن يفخر بتفسيره هذا.

#### المبحث الثاني

#### القيمة العلمية لكشاف الزمخشري

إن تفسير جار الله الزمخشري المسمى بـ(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) يُعدُّ كتاباً قيماً وكنزاً ثميناً لا يقدره الا من يتذوق العربية، فهو من المصنفات التي اخذت مكانة رفيعة عند أرباب العلم شهد له بها القاصي والداني، فقد كان في طليعة التفاسير الكاشفة عن إعجاز النص القرآني وأسرار بلاغته، فقد اهتم صاحبها بالجانب البلاغي والبياني في القرآن وقد حرص كل الحرص عند تفسيره آي الذكر على إيراد ضروبٍ من المجازات والاستعارات ليبين ويبرز جمال وكمال اسلوب القرآن الكريم، إذ يُعدُّ هذا التفسير مرجعاً ضخماً، قد ضم مختلف أساليب العربية وفنونها، من دلالات لفظية، ومعجمية، ونحوية، وصوتية وغيرها، وقد اعتمد صاحبه نظرية (النظم) لعبد القاهر الجرجاني، في استكناه وجوه الاعجاز.

وقد اعتمد الزمخشري في تأليفه على مصنفات السابقين من قبيل: (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، ومصنفات (معاني القرآن) للزجاج، والرماني، والفراء، والافخش وغيرهم، وعلى أمّات مصادر النحو من قبيل: (الكتاب) لسيبويه، و(المقتضب) للمبرد، و(الأصول في النحو) لابن السراج، وكتب القراءات، وكتاب(الحجة في علل القراءات السبع) لأبي علي الفارسي، و(المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) لابن جني (ت 392هـ)، و(الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها) لمكي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ) ... الخ.

ويمتاز كشاف الزمخشري بمميزات متعددة لعل من أهمها:

1- خلوه من الاطناب والحشو والاطالة.

2- سلامته من القصص الموضوعية والاسرائيلية.

3- الاعتماد في الاستدلال على المعاني بما أثر عن العرب من لغتهم وشعرهم.

4- اظهار النكت البلاغية والعناية العالية بعلمي البيان والمعاني.

ومن بين الذين أثنوا على تفسير الكشاف من الجوانب العلمية والبيانية، بعض من سجّلت الباحثة مقالاتهم وهم:

1- الهروي (ت: 829هـ): يمدح الكشاف فيقول: (كتاب عالي القدر رفيع الشأن، لم يُر مثله في تصانيف الاولين والأخرين، اتفقت على مئاة تراكيبه المهرة المُتقنين)(28).

2- ابن خلدون (ت: 808هـ): وهذا هو ابن خلدون يشهد للكشاف يقول: (أنه أفضل الكتب في التفسير من حيث معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم)(29).

3- ما قاله تاج الدين السبكي كذلك نجد الإمام السبكي يشهد للكشاف ما به من الفوائد وما للزمخشري من باع في هذا العلم فيقول: (واعلم ان الكشاف كتاب عظيم في بابة العلمي والأدبي ومؤلفه إمام فنه)(30).

إذن تفسير الكشاف يُعدُّ تفسيراً قيماً وكنزاً ثميناً لا يقدره الا من كان ضليعاً متبحراً بعلوم العربية وكل من له الذائقة الادبية في معرفة أساليب الكلم، فقد انصبت عنايته على النص القرآني بنظرٍ دقيق واحاطة تامة لما اشتمل عليه من أسرار البلاغة وضروب التعبير، فصاحبه مفسرٌ بارعٌ، ولغويٌّ حاذقٌ، ومتكلّمٌ ناصعٌ، وتفسيره قد بلغ من النجاح مبلغاً عظيماً بحيث لا يهتدى كلُّ دارسٍ مختص الاستغناء عنه وفهم ما يصبو إليه.

### المبحث الثالث

#### تفسير الكشاف من زاوية نقدية

لم يكن معصوماً من الخطأ الا الانبياء والائمة عليهم السلام، وعلى هذا الاساس فلا يخلو أي كتاب أو مجهود بشري من النقص والخطأ، وبما أنّ تفسير الكشاف يعدُّ واحداً من بين تلك الكتب التي سطرته يدٌ بشرية، فلا بدّ حينئذٍ من أن تعترها مؤاخذات كما تسجّل لها من محاسن ومميزات، ومن تلك المآخذ التي استقرت عند الباحثة هي:

1- التحيز المذهبي والانتصار لعقيدة المفسر واحدة من أبرز المآخذ التي يتلمسها كل من يتمعن في هذا التفسير، فعند البدء بتفسير آية معينة إذا كان ظاهرها لا يؤيد مذهبه أو يصطدم مع أصل من أصولها فنجد الزمخشري بهذه الحال يلجأ إلى صرفها عن ظاهرها، ويبالغ ويطنب في شرحها لكي لا يُتهم بالعجز والتقصير(31).

2- لم يكتفِ المؤلف بالتحيز العقدي، وإنما اتخذ الزمخشري من تفسيره هذا باباً لتخطئة من خالفه في المعتقد والدعوة الى مذهبه وتارة ينسب من خالفه الى الكفر، مما استدعى مخالفه بالتصدي له ومهاجمته بأشرس العبارات وأشد الأقاويل، فخلق حينئذٍ جواً مشحوناً قائماً على الكراهة المذهبية.

3- إنكاره بعض القراءات القرآنية الصحيحة، وإيراد بعض القراءات التي لا أصل لها أو قد تكون شاذة أو ضعيفة(32).

4- اعتماده في تفسير آيات التنزيل العزيز على العقل تماماً، إذ ليس للنقل عن النبي وأهل البيت -عليهم السلام- وجود في تفسيره، وإن وجدت فهي ضئيلة جداً وتصنف ضمن الاحاديث الضعيفة والشاذة(33).

ومن الذين هاجموا الزمخشري وتفسيره وتحامل عليه كثيراً هو أبو حيان الاندلسي صاحب تفسير البحر المحيط، فقد تعقب الزمخشري في تفسيره بعد أن وصفه في قصيدته وصفاً ذمياً اتهمه بالجهل والضلال والسرقة والمروق عن الدين إذ يقول:

ولكنه فيه مجال لناقد وزلات سوء قد أخذن المخانقا  
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا  
ويشتم أعلام الأئمة ضلة ولا سيما إن أولجوه المضايقا ويسهب في المعنى الوجيز دلالة بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا

يقول فيها الله ما ليس قائلاً وكان محباً في الخطابية وامقا  
ويخطئ في تركيبه لكلامه فليس لما قد ركبه موافقا  
وينسب إبداء المعاني لنفسه ليوهم أغماراً وإن كان سارقا  
ويخطئ في فهم القرآن لأنه يجوز إعراباً أبى أن يطابقا  
وكم بين من يؤتى البيان سليقة وآخر عاناه فما هو لاحقاً  
ويحتال للألفاظ حتى يديرها لمذهب سوء فيه أصبح مارقا  
فيا خسرة شيخٍ تحرق صيته مغارب تخريق الصبا ومشاركاً  
لئن لم تداركه من الله رحمة لسوف يرى للكافرين مرافقا(34)

وقال أبو حيان أيضاً واصفاً الزمخشري بعد نظمه الابيات أعلاه: (وهذا الرجل، وإن كان أوتي من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت شيئاً من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه)(35).

ومن المادحين الناقدين لتفسير الكشاف هو حيدر الهروي من تلامذة سعد الدين التفتازاني الذي كانت له شروحات على تفسير "الكشاف" إذ يقول: (كتاب الكشاف، كتاب عليّ القدر، رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف

الأولين، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقين واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين، ما قصر في قوانين التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقيير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفي أثره ويسأل خبره، وقلماً غير تركيبياً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخلل، وسقط من مزلق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال أصابته عين الكلاله، فالنزم في كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواهه، فتكررت مشارعه الصافية، وتضيقت موارده النافعة، وتزلزلت رتبه العالیه(36).

وخير دليل يفصح عن المقام العالی التي نالها هذا التفسير على الرغم من المؤاخذات المسجلة عليه هو إعجاب كثير من العلماء به على الرغم من اشتماله على التحيز العقدي، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: (وأما قيمة هذا التفسير فهو - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما اظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس كالمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، ولاسيما ما برز فيه من الإمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير (الكشاف) ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء، وعلق به قلوب المفسرين)(37).

من خلال ما تقدم يمكن القول: إن الجميع متفق على ان الزمخشري يعد جهيداً من جهابذة العربية المنشغلين بسبر أغوار النص القرآني واستنطاق مكنوناته ولطائفه، وان كانت على تفسيره مؤاخذات ومساوئ فهي لا تقلل من شأنه، لكونه قد بلغ من النجاح مبلغاً عظيماً، فأصبح منارة للمفسرين فيما يتعلق بلغة القرآن وبلاغته ونظمه.

خاتمة البحث

تمحضت لدى الباحثة طائفة من النتائج التي ظفرت بها بعد الانتهاء من معايشة هذه الدراسة، لعل من أهمها:

1- إن تفسير (الكشاف) لجار الله الزمخشري من حيث التصنيف يصنف ضمن التفاسير البيانية الكاشفة عن بلاغة النظم الكريم وتقري طاقاته الدلالية على كافة المستويات.

2- اعتمد الزمخشري في تفسيره المشار اليه في استقراء مقاصد الذكر الحكيم على نظرية النظم الجرجانية اعتماداً كلياً ووظفها أحسن توظيف بحيث صار تفسيره مرجعاً لاستقاء كثير من الدراسات التي جاءت من بعده ممن غنيت ببيان الوجهة الفنية والجمالية للتعبير القرآني الحكيم.

3- من أبرز ما سجلته الباحثة على تفسير الكشاف هو انحياز مؤلفه انحيازاً تاماً لمعتقده وأصوله الكلامية مؤولاً الآيات التي لا تتسجم مع أصوله الاعتقادية تأويلات بعيداً ياباه صريح الآي والمنطق السليم.

4- لم يهتد الزمخشري في تفسيره الى التوفيق بين العقل والنقل، فقد اعتمد في تفسير آيات التنزيل على العقل اعتماداً كاملاً، وإن ساق النقل في موضع ما، فإنه يسوق ما يؤيد معتقده وينتصر له وإن كان هذا النقل ضعيفاً أو شاذاً.

5- إنكار المفسر بعض القراءات القرآنية الصحيحة، وإيراد بعض القراءات التي لا أصل لها أو قد تكون شاذة أو ضعيفة.

6- مع كل الملاحظات المسجلة على هذا التفسير لكنه يبقى ثروة علمية هائلة يستفيد منها كل المعنيين والمهتمين بالشأن القرآني واللغوي على نحو العموم.

هذا ما وفقني إليه ربي وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

#### هوامش البحث

- (1) ينظر : الانباري، نزهة الألباء في طبقات الادباء: 2 / 280 .
- (2) ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان: 255/4.
- (3) ينظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: 388/2.
- (4) ينظر: الحموي، معجم الادباء: 22/19.
- (5) ينظر: وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان: 256/4.
- (6) ينظر: معجم الادباء: 22/19.
- (7) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (8) ينظر: المصدر نفسه، 65-61/15.
- (9) ينظر: نزهة الألباء في طبقات الادباء: 2 / 284 .
- (10) ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: 391/2.
- (11) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (12) ينظر: العمراني، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الاشرار: 69/1.
- (13) ينظر: عمر كحالة، أعلام النساء : 2 / 75 - 76 .
- (14) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: 394/2.
- (15) الزمخشري، الكشاف: 3/1 "المقدمة".
- (16) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (17) مقدمة ابن خلدون: 988.
- (18) العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 5/1.
- (19) ينظر: المصدر نفسه: 5/3.
- (19) بن عاشور، التفسير ورجاله : 58 - 59 .
- (20) ينظر: المصدر نفسه: 60-61.
- (21) ينظر: الذهبي، التفسير والمفسرون: 1 / 298 ، 305.
- (22) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (23) ينظر: ينظر : معجم الأدباء : 29 / 19.
- (24) السامرائي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: 161.
- (25) ينظر: شويحط، السماع اللغوي المباشر عند النحاة قبل سيبويه: 45.
- (26) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: 182/2.
- (27) ينظر: الكشاف: 3/1.
- (28) مقدمة المحقق في تفسير الكشاف: 12.
- (29) كحالة، معجم المؤلفين: 189-188/5.
- (30) المصدر نفسه: 225.
- (31) ينظر: منيع عبد الحليم، مناهج المفسرين: 109-110.
- (32) ينظر: الغامدي، المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري: 57/1.
- (33) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(34) الاندلسي، البحر المحيط: 461/8.

(35) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(36) حاجي خليفة، كشاف الظنون عن أسامي الكتب والعيون: 177-176/2.

(37) الذهبي، التفسير والمفسرون: 433/1.

#### مصادر البحث ومراجعته

أولاً: القرآن الكريم كتاب الله الخالد

ثانياً: المصادر والمراجع:

- ◆ ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد (ت: 630هـ):
  - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة - مصر، (د.ط)، (د.ت).
- ◆ ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم (ت: 1282هـ):
  - وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت-لبنان، ط2، 1420هـ.
- ◆ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر (ت: 1393هـ):
  - التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، د.ت.
- ◆ ابن عباد، إسماعيل بن العباس الصاحب (ت: 385هـ):
  - المحيط في اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ط، د.ت.
- ◆ الانباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت: 577هـ):
  - نزهة الألباء في طبقات الادباء، تح: ابراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الشارقة-الامارات، ط3، 1423هـ.
- ◆ الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (ت: 745هـ):
  - البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت - لبنان، د.ط، د.ت.
- ◆ الحموي، أبو بكر تقي الدين بن علي (ت: 837هـ):
  - معجم الادباء، تح: عصام شقيو، دار البحار، بيروت - لبنان، د.ط، د.ت.
- ◆ الذهبي، محمد بن السيد حسين (ت: 1398هـ):
  - التفسير والمفسرون، اصدارات وزارة الشؤون الاسلامية والاقواف والدعوة والارشاد، المملكة العربية السعودية، ط1، 1430هـ.
- ◆ الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت: 538هـ):
  - أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1419هـ.
  - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط3، 1407هـ.
- ◆ السامرائي، صالح مهدي (ت: 1446هـ):
  - تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، دار عمار، عمان - الأردن، ط5، 1429هـ.
- ◆ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ):
  - الإتيقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، د.ت.
  - السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، د.ت.
- ◆ العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم (ت: 745هـ):
  - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط1، 1423هـ.
- ◆ العمراني، أبو الحسين يحيى بن أبي الخير (ت: 558هـ):
  - الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الاشرار، تح: احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1427هـ.
- ◆ الغامدي، صالح بن غرم الله:
  - المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1419هـ.
- ◆ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطيني (ت: 1067هـ):

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والعيون، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة – السعودية، د . ط، د . ت .  
♦ شويحط، إبراهيم أحمد محمد:
- السماع اللغوي المباشر عند النحاة قبل سيبويه، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط – المغرب، د . ط، د . ت .  
♦ عمر رضا كحالة:
- أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت-لبنان، ط1، 1428هـ.
- ♦ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت: 808هـ):  
- مقدمة ابن خلدون، تح: مصطفى الشيخ مصطفى، المطبعة الحميدية ، القاهرة – مصر، ط1 ، 1419هـ .  
♦ مقاتل، أبو الحسن بن بشر بن سليمان ( ت : 150 هـ ) :  
- تفسير مقاتل بن سليمان، تح : عبد الله محمود شحاتة ، دار إحياء التراث ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1423هـ .  
♦ منيع عبد الحلیم محمود:  
- مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري، القاهرة- مصر، ط1، 1421هـ.